اجتهادات
الفنان.. والإمبراطور

ذكرنى الفنان التشكيلى اللبنانى الصديق محمد الخطيب، فى سياق تعليقه على الاجتهاد المنشور فى 14 أبريل الحالى عن مئوية رحيل نابليون بونابرت الثانية، بحرصه على أن يُحاط بعدد من الرسَّامين الكبار الذين رسموا له لوحات صار بعضها من أهم الأعمال الفنية. فقد وردت فى ذلك الاجتهاد إشارة إلى لوحات خمس رسمها جاك لوى دافيد وصوَّر فيها بونابرت الأول على صهوة جواده. وكان دافيد من أهم الفنانين الذين صوَّروا غزوات الإمبراطور فى لوحات يرى الخطيب أن أكثرها بديع فى تركيباته وألوانه.

كما لفت انتباهى إلى البُعد السياسى للوحة رسمها فنان ثان هو أنطوان جروس عن بونابرت فى يافا خلال فترة قيادته للحملة الفرنسية على مصر. صوَّر جروس فى هذه اللوحة بونابرت واقفًا وسط مرضى الطاعون، الذى كان منتشرًا فى يافا فى ذلك الوقت، يطمئن عليهم ويلمس أحدهم بأصبعه، سعيًا إلى إبراز نزعة إنسانية لم تُعرف عنه.

ويتجلى البُعد السياسى لهذه اللوحة فى أن جروس رسمها بالتزامن مع تنصيب بونابرت الأول إمبراطورًا عام 1804، أى بعد نحو خمس سنوات على مغادرته إلى فرنسا تاركًا حملته تحت قيادة الجنرال كليبر. واللافت، هنا، أن جروس رسم اللوحة من بنات خياله بشكل كامل، لأنه لم يرافق بونابرت فى حملته.

ويلفت الانتباه أيضًا أنه برغم الطابع الدعائى لتلك اللوحة، وتناقض مشهد لمس المصاب بالطاعون مع روايات تاريخية تفيد أن بونابرت تجنب الاقتراب من جنوده المصابين بهذا المرض عندما زارهم فى مستشفى بجبل الكرمل، إلا أنها تُعد من الروائع بما فيها من ديكور شرقى وألوان كثيفة حادة تُعطى إحساسًا بسطوة الوباء، وبطريقة تصوير المصابين به وجُثث الموتى بسببه فى تركيبة تجمعهم وضباطًا يرتدون عمائم شرقية. ويبدو أن جروس كان مؤمنًا فعلاً بعظمة بونابرت، فجاءت لوحاته بديعة بالمعايير الفنية, برغم طابعها الدعائى بالمقاييس السياسية.

وبرغم أن الكثير من الحكام فى أنحاء العالم مضوا على نهج نابليون الأول فى احتضان من يرسمونهم وينحتون تماثيل لهم، فنادرًا ما نجد عملاً يرقى إلى مستوى رسوم جروس، ولوى دافيد.